الأنوثة وتمظهراتها في نماذج مختارة من شعر عثمان لوصيف

Femininity and its Manifestations in selected models of Lousif Othman's poetry

عبد الرحمان بن عمر[1،*]،

[1]جامعة الوادي، (الجزائر)، benamor-abderrahmane@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2021/09/01 **تاريخ المراجعة**: 2021/09/17 **تاريخ النشر**: 2021/12/30

ملخص :

تشكل الأنوثة في شعر عثمان لوصيف أيقونةً شعريةً قائمةً بذاتِها، لها أبعادُها الدّلالية المعبّرة عن رؤية الشاعر، ولعلّ تَمَظْهُرَات الأنوثة بشكلٍ مكثّفٍ في شعر الشاعر ما هو إلا إصرارٌ منه على بُعدٍ فكريّ وفلسفيّ معيّن، وتَعَدُّدُ تمظهراتِ الأنوثة ما هو إلا تعاطيًا مع الواقع ومع الحياة المتمايزة والمتناقضة في مظاهرها، فالأنوثةُ في شعر الشاعر ليست جسدًا يُشتَهى فحسب، بل هي عوالم شعريّة صوفيّة أثْرَتْ تجربتَهُ الشعريّة بِتَمَظْهُرِ الأنوثةِ في صورٍ شتّى، من هذه المظاهر ما هو ماديّ كالجسد وما يمنحه للشاعر من رموزٍ حسيّةٍ مختلفة، ومنها ما هو روحيّ من خلال توظيف الأنثى كائنًا سماويّا نورانيّا يرمزُ إلى الذات الإلهية، وما المرأة من خلال هذا التَّمَظْهُرِ إلاَّ تجلٍّ فيزيقيٍّ للإله.

الكلمات المفتاحية : الأنوثة، الجسد، شِعر، تَمَظْهُرات، عثمان لوصيف.

Abstract:

Femininity in the poetry of Othman Loucif is regarded as a stand-alone poetic icon, with semantic dimensions that reflect the poet's vision. Intense indications of femininity in the poet's poetry can be viewed as an insistence on a particular intellectual and philosophical dimensions. Multi-manifestations of femininity are just dealing with different and contradictory manifestations of reality and life. In the poet's poetry, femininity is more than just a desired body; it is a mystical poetic world whose poetic experience has enriched the appearance of femininity in various forms. Some are physical like the body and the different sensory symbols presented by the poet, while others are spiritual through the use of the female as a celestial object symbolizing the divine. Through this manifestation, woman is merely a physical demonstration of God.

***Keywords**: femininity, body, poetry, manifestations, Othmane Loucif.*

* المؤلف المراسل

تمهيد :

شغلت الأنثى الشعراء قديما وحديثا، فهي الملهم وهي المُنية والمُبتغى، وهي مصدر السرور والألم حين تُقبِل أو تُدبِر، ألهمتْ شعراء الجاهلية في حلهم وترحالهم، فنظموا في النسيب يشببون بالمرأة ويذكرون محاسنها المادية والروحية، ويعبرون عن حبهم وافتتانهم ولوعتهم بها، ثم تطور تَمظهُرها لتصبحَ رمزا تتعدّدُ دلالاته، فهي رمز للجمال و للحب والرقة والخصب والعطاء والحياة والأُنس والارتواء وللوطن والأرض، ولقد انتهج الشعراء القدامى طريقين في وصف المرأة وفي تَمظهُرها في القصيدة العربية، فمنهم من ركز على وصف محاسنها الخارجية ومواطن الإثارة فيها كما هو الحال في شعر المجون، ومنهم من ركز على الجانب الروحي العميق في المرأة بعيدا عن مكونات الجسد الحسية كما هو الحال في الغزل العذري العفيف، ثم جاء شعراء التصوف ليَنْصَهِرَ عندهم الصّنفان معا في الغزل الإلهي كابن الفارض شاعر الخمرة الإلهية وابن عربي صاحب الفتوحات المكية، و يستثمر الشاعر الصوفي أوصاف المرأة المادية والروحية كرمز ليعبر به عن حبه وشغفه وهيامه بالذات الإلهية، حيث يُسقط الصوفي رمز المرأة على ما يكابده من شوق وحنين لتجلّي خالقه له، كما يسقط ما في المرأة من محاسن وإثارة وإغواء على الذات الإلهية حين تتجلى له في صورة امرأة لدنّية ساحرة، وهذا التجلي إذا تحقق للصوفيّ يزول سريعا، فيعود الشاعر لينظم قصائد الشوق والحنين مرة أخرى يناجي بها ربه، ويتطلع لعوالم الملكوت علّها تهبه بَرْقا من البروق الربانية يذوب في ضِيائها ويُفني روحه في أنوارها.

وهكذا أصبحت الأنثى عند المتصوّفة رمزا للذات الإلهية، أو هي ذاتٌ أولى تعرج بك إلى الذات العليا حيث الأنوار السماويّة والمكاشفات الربانيّة، فالمتصوّفة واءَمُوا بين الحب الإلهيّ والحب الإنسانيّ " والشاعرُ إذْ يفيضُ رقةً ولطفًا، يسلّمُ على المحبوبة التي ينوّع أسماءَها، بوصفها تجسيدا فيزيائيا لتجلٍّ إلهي، يتنوع ظهوره فيما لا يتناهى من الصور، وكلما تلاشت من المشاهدة الخيالية صورةٌ شخصتْ أخرى مقامَها"[1]، لذا نجد الشعراء يوردون أسماءً متعددةً كرباب وليلى وسعاد وهند وغيرها، وتَنوُّعُ الأسماء ما هو إلا استدعاء للذات الإلهيّة التي تتعدّد الصور المعبّرة عنها.

وبما أننا بصدد دراسة شعر عثمان لوصيف سنركّز على تمظهُرات الأنثى في شعر الشاعر والتي شغلت حيّزا مهما في دواوينه، فهي في نصوصه رمزٌ للوطن وللواقع وللتناقض وللنشوة وللفشل والخيبة، رمز للإله، رمز للصبر والمجاهدة، رمز للتجدّد، وكل تمظهرات الأنثى في دواوين عثمان صُبغت صِبغَةً صوفيّة، تتعدّد خلالها الأبعاد الدلاليّة للمرأة على حسب الأبعاد الاجتماعيّة والثقافيّة والفكريّة، وعليه " فصورة المرأة أكثر رهافة وحساسيّة وأشدّ وضوحا في تعبيرها عن الواقع من صورة الرجل ... كذلك نجد المرأة قادرة على أن تستقطب بحساسيتها المتأنية واتزانها العاطفي مثل مجتمعها وتقاليده بجميع عناصرها استقطابا يبلغ حد الثبات والتكرار"[2]، فالمرأة الأنثى بهذا المنطلق هي الحياة هي الواقع هي المجتمع باختلاف مكوناته وتناقضها، هي الكون بأسره، "إنّ رمز المرأة في الشعر الصوفي رمز مركب ومعقد، فهو مأخوذ عن فلسفات وأساطير وعقائد شيعية وباطنية وغنوصية، ومصادر أخرى متعددة، فالمرأة صورة ورمز لجوهر أنثوي أُشرِب طبيعة إلهية مبدعة"[3]، يقول ابن عربي في هذا السياق: " ليس في العالم المخلوق أعظم قوة من المرأة، لسرٍّ لا يعرفه إلا من عرف فيم وُجد العالم، وبأي حركة أوجدَه الحقُّ تعالى"[4]، فالأنوثة سر الكون ومفتاحه، بل هي الكون كله لما يحمله رمزها من دلالات لامتناهية.

ولعلّنا نتساءل عن الرابط الذي جمع التصوف بالأنوثة إذا اعتبرنا أن التصوف منبعه دينيّ فهل يمكن الجمع بين الطاعة والانقياد من جهة وبين الفتنة والغواية من جهة أخرى؟! المرأة هي البنت مهجة القلب، والأخت الحنونة، والأمّ المجاهدة والبانية للمجتمع والمدمّرةُ له إن شاءت، هي المحبُوبة، هي الصامدة رغم محاولات كسرِها وتقزيمها من طرف المجتمع بصفته مؤسّسة ذكوريّة، المرأة هي المجتمع كله، هي الدنيا بأسرها، هي أجْملُ ما خُلِق، هي خَالِقٌ وليست مخلوقا كما يؤثر عن جلال الدين الرومي، المرأة جزء من الجمال الأبدي المطلق الذي راح الشعراء يتغنّون به تشبيها له بالجمال الإلهي، فالكون مرآة عاكسة لجمال الخالق، وما المرأةُ إلا جزءًا من هذا الكون، بل هي ربما أجملُ مكونٍ فيه وأكثرهُ فتنة وإغراءً وإغواءً، وكما فعلت المرأة فِعلتها بالعشاق والهائمين حال البعد والنوى يفعل غياب المعبود عن عبده إذا طال الشوق والانتظار الأفاعيل، ولنبدأ بأول تمظهر من تمظهرات المرأة في شعر "عثمان لوصيف" وهو تمظهر " العيون".

أولا: العيون:

العيون منجم الحقائق، كتاب مفتوح يمكن من خلاله قراءة حال صاحبها، أحزينٌ أم فرحٌ أم خائفٌ أم غيورٌ أم مريضٌ أم عاشقٌ ...، فالعيون لا تُجيد الكذبَ ولا النفاقَ، هي مصدرُ إلهامِ الشعراء والمبدعين، أقوى سلاحٍ تملكه الأنثى لتفتِك بالمحبين والهائمين، وإنَّ أجملَ ما في نساءِ الجنةِ حَوَرُ عُيونِهن فهُنَّ الحورُ العين، من العيون يكون البدء، وتبدأ القصة، ويشتعل الحبّ، ليصبح جمرا ونارا وبركانا متفجرا، فكانت بذلك عند الشعراء رمزا صوفيا يشير إلى أحوالهم ومكاشفاتهم، والعين بمثابة الأيْقُون الذي تلِج من خلاله عوالمَ السحرِ والجمال، هي المفتاح الذي يفتح لك باب الكشوف والتجليات، هي السحر الذي يشدُّ رُوحَكَ لتَفْنَى في رُوحِهِ.

وظف الشاعر رمز العيون في قصائد كثيرة، لا يسع المقام لذكرها، لكننا سنأخذ نماذج على سبيل التمثيل لا الحصر، ومن هذه النماذج الشعريّة ديوان " ولعينيكِ هذا الفيض"، وقبل قراءة النص وإبراز أبعاده الرمزية، نقف عند العنوانِ والمركبِ من واو عطفٍ وحرف جرٍ مع مجروره (لعينيكِ) واسم إشارةٍ (هذا) ثم خبرٍ (الفيض)، هذا التركيبُ تركيبٌ صوفيٌّ، لأن الولادةَ والخلقَ والإبداعَ لا يتأتَّى إلا بالاتّحاد وانصهار العناصر مع بعضها البعض وحلول الذوات في ذات واحدة، هنا يمكننا قول : " أنا من أهوى ومن أهوى أنا"، وحرف العطف يدلُّ على الشّمولِ، فلِعَينيْها هذا الفيضُ وغيره من الفيوض الإلهية.

العيون كتَمظهر من تَمَظهرات الأنوثةِ، هي بوابة الدخول إلى عوالم الملكوت، هي عيونٌ صوفيّةٌ، عُمقها لُجَجٌ شبقيّة، في قول عثمان لوصيف[5] :

وبأغوار عينيك الصوفيّتين
تحتدم اللُّجج الشبقيّة
وتتشكل أعياد الطبيعة

يكرر الشاعر رمز العيون أكثر من مرة في هذا الديوان، وللتكرار دلالة في النص، حيث هو إصرارٌ وترسيخٌ لرؤية الشاعر ولأهميةِ ما يرمز إليه، فالمرأةُ هنا من خلال عيونها الصوفية هي رمزٌ للنشوةِ وللمتعةِ وللجمالِ، هي ذروةُ المتعة باحتدام اللجج الشبقية، لتتشكل أعياد الطبيعةِ وأعراسُ الروحِ في حضرةِ الذاتِ الإلهية، فالمرأة هي الذاتُ الإلهية التي تتجلَّى للصوفيّ، هي كوكب النور الساقط من العرش المتفجّر في قلب المُحبّ، هي ذلك الجسد النوراني الفاتن الأخّاذ، وما الأنوثة هنا إلا رسولٌ يربط الشاعر الصوفي بخالِقه، وفي

قصيدة " يا أنتِ!" يعطينا عثمان لوصيف صورا شعرية صوفية مرمزة بالأنوثة الطافحة من خلال أيقون العيون حين يقول[6]:

مع غروب كل شمس
أحجُّ أنا المؤمن إلى عينيك الصوفيتين
وأغسل كل ذنوبي في زمزمك المقدس

العيون أيقون صوفيّ من خلاله يَلِج الشاعرُ عوالمَ التجلّي، هذه العوالمُ التي لا تنكشف للصوفيّ إلا في الظلام حين يسكنُ الكونُ في هدوءٍ ويخلو الحبيبُ بمحبوبه، عندها يتحقَّقُ وصالُ الطُّهرِ والتوبةِ والإنابةِ في حضرةِ الإله، ثم يواصل الشاعر فيقول[7]:

لمحيطاتِ عينيكِ أُسلّم نفسي
ثم أرسلُ مِعراجي ..

من العيون يكون المعراجُ إلى السماوات حيث عرش المحبوب، فالعيون كتَمظهِر للأنثى رمزٌ يرسلُ خيوطه ليشدَّ كل قصائدِ عثمان لوصيف بأربطةٍ صوفية روحانية مغرية ومؤثرة، صور شتى يجسّدها لنا الشاعر في هذه القصيدة، ومنها المزج بين رمز العيون والنص القرءاني في قوله[8]:

آه! عيناكِ نضّاختان
بالرؤى .. والألوان
فيروزتان تتندّيان
ونجمتان تتغامزان
فينجذب الشعراء
مصعوقين
مثل الدراويش
إلى مدارها الآسر

يوظّف عثمان لوصيف رمز الأنوثة من خلال صورة العيون الساحرة في قوله: (فيروزتان – نجمتان تتغامزان فينجذب الشعراء)، لكنها ليست عيونَ أيّ امرأة، إنَّها امرأة لدنّية نورانية، نجمةٌ تتلألأ في السماء فتجذِبُ إلى مدارِها كل المحبّين والمريدين والتّائهين، عينانِ نضَّاختان بالرؤى والألوان، هي عين الجنة النضاخة بالماء العذب الزلال كما وصفها الخالق سبحانه حين قال : (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ [الرحمان: 66]) لكن عثمان جعلها نضَّاخة بالرؤى وبالألوان وبالأنوار وبالخيال المطلق المجنح الذي لا يحده حدود.

ثانيا: الأنثى الوطن:

وظف الشعر المعاصر الأنوثة تغنيا بالأوطان وحزنا على انتهاكها وسلب مقدّراتها وثرواتها، فأسقطوا محاسن المرأة على جمال الأوطان وخيراتها، وهذا التوظيف لا يستثني لغة الجسد، في حين مزج الشعر الصوفيُّ بين الأنوثة والوطن مجسِّدين من خلال ذلك فكرة وحدة الوجود، وما الوطنُ والأنوثةُ إلا تَمظهُرًا من تمظهرات الذات الإلهية، وفي الكثير من القصائد نجدُ عثمان لوصيف يزاوجُ بين توظيف النزعةِ الشبقية والوطن حيث

يكون المزج بينهما مزجا صوفيًا، فهو تغنّى بمدن كثيرة واختارها عناوينا لقصائدِه كطولقة وبسكرة وباتنة و ورقلة والأغواط والجزائر العاصمة وغرداية وتيزي وزو وغيرها من مدن هذا الوطن الحبيب، ومن هذه النماذج الشعرية قصيدة " سطيف" من ديوان " اللؤلؤة" التي يصِفُها وصْفًا صوفيًّا شبقيًّا فيقول[9]:

رأيت عينوكِ في كل وجه
بكيت وأدركني اليأس ،
قلت أعود إلى النخل ،
لكنّني حين ناديت عبر الدروب :
سطيفُ! سطيفُ!
وجدتكِ بين يديَّ بثوب زفاف
فأيقنتُ أن الغرام سطيفُ
وأن العروس سطيفُ
ضممتكِ فانهمر الثلج
غنّت عيونكِ
وابتدأ العرس ...
ثم ارتمينا على الريش ملتهبَيْن
ونمنا هنالك تحت الندى شفة في شفهْ!

الملاحظ لهذه الصورة الشعرية يستيقن أن الشاعر ليس ذلك الذي ينظم شعرا وطنيًّا ثوريًّا يتغنَّى بالأرض ويتوقَّف عندها، بل نجد عثمان لوصيف يجعل من الوطن حبا وعشقا صوفيا، يوظِّف في هذه الصورة معجَمهُ اللغويَّ الخاص، ويجمع بين رمز الأنوثة ورمز الماء، وإذا التقت الأنوثة مع الماء تحققت الولادة والخلق، إذا التقى الماء مع الأرض ولد النبت وتفتح النرجس وفاح الياسمين، سياق صوفي أنثوي شبقي تُزفُّ فيه سطيف عروسا للشاعر، فلا حديث ولا حوار إلا الريشَ والندى والدِّفء والقُبلات بين الشاعر وبين هذه المدينة التي أحبها.

وفي قصيدة " الأغواط" من نفس الديوان تتمظهر الأنوثة في صورة الوطن بصبغة صوفية سماوية حين يقول الشاعر[10]:

كاشفني المهيمنُ القدُّوسُ
رأيت .. ما رأيتْ
حمدته .. صلّيتْ
سألت في الجنة عن حوريّتي
فكانتْ الأغواطْ!

ما يتميز به عثمان لوصيف هو أن كل رموزه تتمظهر في صورة واحدة هي صورة الذات الإلهية، فالمرأة بعيونها وقوامها وجمالها ومواطن القبح فيها من جهة، والوطن بجماله وخيراته من جهة ثانية، كلها صور تعكس وجها من وجوه الجمال الإلهي، فلا عجب أن يجمع الشاعر هنا بين الأغواط وبين الحور العين في الجنة، في لحظة

من اللحظات الكشفيَّة كانت الأغواط صورةً من صور الذات الإلهية، ولعل المقال لا يسع لتناول نماذج أخرى تتمظهر فيها المرأة في صورة الوطن وهي كثيرة في دواوين الشاعر .

ثالثا: الجسد والنزعة الشبقة:

إن توظيف شعراء التصوف للنزعة الشبقية في قصائدهم ما هو إلا " تركيب لرمز المرأة بين الشعور الذاتي الخالص والأوصاف الخارجية المحسوسة التي تغرق أحيانا في مزج جمال المعشوق بنزعة حسية شهوانية تزيد الرمز إبهاما وغموضا"[11]، وهذا التوظيف ليس خاصا بعثمان لوصيف، فقد جسَّد شعر المجون والشعر الحديث المرأة بشكل تصويريٍّ مثير، صورٌ شعريّة تفوح شهوة وإثارة، " هذه النزعة الشبقية استثمرها شعراء التصوف وألبسوها نزعة صوفية، ويَبطل التعارض الموجود بين الجسد والروح"[12]، فالنزعة الصوفية لا تفصل الجسد عن الروح، ولا السماويّ عن الأرضيّ، ولا الماديّ عن الروحيّ، بل الكلُّ موحّد في حضرة الذات الإلهية، عندها لا يمكننا أن نجد حرجا في توظيف النزعة الشبقية رمزا للمتعة التي يتذوقها الصوفي لحظة الوصال والتجلي.

الأنوثة عند عثمان لوصيف هي الملاذ وهي الهروب من الواقع المكفهر، هي الفرار من الألآم والأحزان، هي السّحر والغواية، هي المعبود، وفتنة التعري هنا لها رمزيتها في التوظيف، لأن التعري شجاعةٌ وكسرٌ لكلّ القيود، وتجرد من كل دنيويّ زائلٍ، التعري رمز للتجرد للخالق سبحانه، يقول عثمان في قصيدة "جسد" من ديوان" قصائد ظمأى"[13]:

فجأة يغرد نهداكِ
مثل كناريّتين
تتوثبان للطيران
ومن حناياك الخفية
تصّاعد السمفونيات
نوافير من حنان يترذّذ
على أيامي القاحلة
أيتها الأنثى التي أعبدها
زيديني من دوارق سحرك
زيديني من إكسيرك
وكيميائك

يوظّف عثمان لوصيف هنا رمز المرأة الجسد مع رمز الطير ورمز الماء، وكلها رموز صوفية تراثية أسطورية، فالمرأة رمز الفتنة والإثارة والسحر، والطير(طائر الكناري) رمز للعلو والارتقاء والتجدد وللجمال، والماء(يترذذ) رمز للصفاء وللحياة وللبدء حين كان عرش الله على الماء، كلها رموز مزجها الشاعر في وعائه الشعري لتتفاعل كِيمياؤُه وكيمياؤُها فتمنحه إكسير الحياة والخلود، لغة الجسد(نهداك) هنا لغة رمزية صوفية يرتقي من خلالها الشاعر من المادية السطحية التي تفوح شهوة وإثارة إلى الروحانية العلوية التي تعبقُ طُهرا وصفاء.

يقول عثمان موظفا النزعة الشبقية في سياق صوفي آخر[14]:

نمّشتُ يديك بالقبلات
غمّستُ شفتيكِ بالزنجبيل
واقتطعت لك من ضلوعي
نسرينةً وشُعاعين
أتذكر ماء المشيمة
أتذكر الرحم الأولى
أتذكر ثَديَيْنِ سَخِيَّيْنِ
يندلقان شهدا ورضابا
أتذكر بخور أنفاسكِ
وهج لياليكِ
حريرَكِ

وظف عثمان هنا صورا مثيرة للمرأة فأشار إلى القبل والشفاه والأثداء والرضاب والبخور والوهج والحرير والمشيمة والرحم الأولى، فالمرأة بهذا الوصف المغري هي مرآة للخالق وصورة من صوره الأكثَرَ إغراءً وإغواءً ممّا نَتصورهُ، وما وصف الشاعر هنا إلا لتقريب الصورة والحالِ التي انتابته للقارئ، وما يمكننا استنباطه هنا هو أن عثمان يشير إلى أول شهر بعد الزواج عند كل عروسين، فهو شهر المتعة والشهوة والوصول إلى ذروة الشبق، وبعدها تكون الرحم الأولى، والحمل الأول عند الزوجين يكون مهما ومفرحا، والولادة الأولى تُدق لها الطبول وتقام لها الأفراح وتُذبح لها الذبائح، وهذا الإسقاط ما هو إلا تجسيد من الشاعر ليبين لنا حاله بعد تجلي الأنوار الربانية له، وكيف يغوص في الحال، كيف تكاشفه الأنوار، وكيف يستمتع بها ويتحد معها، ينصهر فيها فلا شيء حينها يُرى إلا الله، ثم توارت عنه هذه الأنوار وتركته يعيش ألم الانتظار مرة أخرى.

وفي ديوان " اللؤلؤة" يفتتحه الشاعر بقصيدة صوفية أنثوية، وهي قصيدة " حورية الرمل" والتي وُسمت بهذا العنوان الصوفي الأنثوي، فالحورية من نساء الجنة، والرمل رمز للصبر والمكابدة والمجاهدة، رمز للتاريخ عندما كان ذات يوم جبلا ثم صخرا ثم حجرا فحصًى فرملا، وجلُّ الأنبياء والرسل مروا من الصحراء واستوطنوها كموسى وعيسى ويحي وزكرياء وصالح وهود وشعيب ونبينا عليهم جميعا من الله السلام وغيرهم كثير، وكأنّ الرسالة الإلهية توحي للمحبين والهائمين بأن يلزموا هذه الصحراء والرمضاء فإن الوصال لا يكون إلا من خلالها بعد تعب ومشقة ومجاهدة، فربنا تجلّى لكليم الله في صحراء سيناء، وجبريل υ تجلّى لحبيبنا المصطفى في صحراء مكة حيث غار حراء، يقول عثمان مستحضرا هذا الزّخم من الدلالات التي يحملها الرمل[15]:

وقفت حورية الرمل تغنّي
عاريهْ
فرشت وردتها ،
قالت: تطهّر بالخطيئةْ
فطرة الرملِ بريئهْ

وهُراءٌ ما رواه الراويةْ!

وظّف الشاعر في هذا المقطع مظهرا من مظاهر الجسد حين وقفت له حورية الرمل عارية، والتعري له رمزيته كما أشرنا، لكنَّ الشاعر أحاط العبارة بهالة من الغموض تجعل القارئ يُعمل فكره للبحث عن الدلالة، فالحورية تغني عارية، والمفارقة أنها توحي للشاعر بأن الطُّهر يكون بالخطيئة، وتشير له بأنَّ الرمل بريء نقي صاف ولا صحة لما يرويه الرواة محاولين تشويه الصحراء، الخطيئة هنا جزء من الإنسان، ولولاها لما وُجد وخُلق، كيف لا وهي التي أنزلت آدم υ من الجنّة، والتي أغوته أُنثى، كما أنّنا نحن البشر أبناء القاتل هابيل، الخطيئة بهذا التصوّر ضرورة وسنة وفطرة لا تُعاب، كما قال ρ : " كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"[16]، وفي حديث نبوي آخر يقول ρ : " لو أنكم لا تُخطِئونَ، لأتى الله بقوم يُخطئون يَغفِرُ لهم"[17]،هي حكمة ربانية استأثر بها الخالق سبحانه في علمه عندما أجاب الملائكة بقوله : (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ [البقرة: 30])، فلا عجب أن تكون لعثمان لوصيف هذه الرؤية وهذا التصور الديني والصوفي الكوني الواسع، كل ذلك كان في سياق أنثويّ، فالأنثى هي موضعُ الخطيئة هي الإغواء والفتنة، والوصال الأنثويّ هو حياة وتجدد. تذكرني هذه الأسطر الشعرية بمريم عليها السلام حين اتُّهمت بالخطيئة، لكنَّها البتولُ، محلُّ الطهرِ والصفاءِ والنقاء، لذا وجبَ الطُّهر بالخطيئة، فليس كل ما تراه وتسمع عنه حقيقة.

رابعا: جمالية القبح:

دوما يحاول الشعر أن يصور لنا الجمال في تمظهراته المختلفة، وهذا المُنطلق تغيَّر بتغير الرُّؤى، فالشاعر ليس همه الوحيد تصوير المثالية الجميلة فحسب، بل أصبح همه التعبير عن الواقع كما هو دون تزييف، كما أن المعاني والصور يكمِّل بعضها بعضا وإن تمايزت وتعارضت،" وبما أن الجمال يعني الانسجام والتناسب والتوازن، فإن القبح بالمقابل يعني الإخلال والتنافر وعدم الانسجام، وإذا كان الجميل يشعرنا بالرضا تجاهه، فإن القبيح يشعرنا بالنفور والتقزز ... فهل القبيح فنيا نوع من أنواع الجمال؟"[18]، الجمال والقبح شقَّان يشكّلان وِحْدة متكاملة تعبر عن جكمة الخالق وعظمة خلقه، والشاعر المعاصر أصبح يزاوج في توظيفه بين مظاهر الجمال والقبح، فالجمال أحيانا يكون خدّاعا يخفي وراءه الكذب والنفاق والشر، والقبح أحيانا يكون قناعا يخفي الطيبة والسماحة والخير، ومن الصور المناقضة للأنوثة بوصفها مظهرا من مظاهر الجمال - في هذا السياق - والتي وظفها الشاعر في هذا الديوان هي المرأة الأفعى الرقطاء المسعورة الغجرية، امرأة صورها الشاعر في أسمى معاني القبح، والمفارقة أنها كذلك مفتاح من مفاتيح دخول ملكوت الله، يقول عثمان[19]:

وكان يكسو جسمكِ
شيء من النمش
وكنت تفحّين
فحيح الأفاعي الصائلة
أيّتها الرقطاء
المسمومة .. المسعورة
أيتها الغجرية العاشقة ..

ورُحتُ أنا في ذهول
أتشمّم إبطيك المعشوشبين
ها .. أريجُك المتسعّر يفضحكِ
وبطنك يتلوّى .. ويعوِي
تغرقُ فيكِ
كل أساطير البشر
تجدُ متسعا فيكِ
كل الديانات والطقوسات
تموت لتحيا فيكِ

هنا يصور لنا عثمان لوصيف صورة مغايرة للمرأة ومناقضة لصور أخرى، هنا تتجسد ازدواجية الجمال والقبح، فهي امرأة أفعى رقطاء خالط البياض منها السواد، جسمها يكسوه شيء من النمش(مرض جلدي، عبارة عن بقع بنية في الجلد)، غجرية همجية ذات إبطين معشوشبين بطنها يتلوى ويعوي، هذا القبح الذي صوره لنا الشاعر ما هو إلا مكمل للجمال الأول عند المرأة فالحسن يظهر حسنه الضد، ولولا القبح لما اهتدينا إلى الجمال، هنا نعي جيدا أن الخالق سبحانه خلق كل شيء فقدره تقديرا، ومن كل الأشياء خلق زوجين يكمل أحدهما الآخر، فالوصول إلى ملكوت الله يأتي باتحاد الجمال مع القبح، وبازدواج المعصية مع الطاعة، كما يمكننا تأويل هذا المقطع الشعري بلذة الألم عند الصوفية، كل صور القبح هذه هي قناع وحجاب يخفي وراءه الجمال والنور والبراءة، فالشهيد على أرض الجهاد يظن أن جراحه ودماءه ألم وشدة ونهاية، إلا أنها في الحقيقة بوابة لحياة أبدية ومتعة ولذة ربانية، عندها يتمنى لو يعاد للدنيا فيستشهد ليتذوق لذة الألم مرة أخرى، إن طريق المجاهدة عند الصوفي طريق شاقة ومتعبة ومنهكة لكن لذة الوصال والكشف تنسيه كل الآلام والمتاعب والأحزان.

وفي موضع آخر تتمظهر الأنوثة في شعر عثمان لوصيف أفعًى سامةً، وسمها ترياق الحياة، فالمرأة تصبح رمزا للمكابدة والتعب والتضحية، رمزا للألم، وللألم لذته ومتعته، يقول عثمان[20]:

يا أفعايَ اللَّجوج
اسقني من سمكِ الزعاف
فهو لي بلسم وتِرياق

وفي موضع آخر من شعره يوظف الشاعر صورة لامرأة خصلات شعرها طائشة، وهي تجسيد لمظهر من مظاهر القبح عند المرأة فيقول[21]:

خصلاتك الطائشة
صورة حية لأيامي الحيْرَى
لخطواتي الضالة

ما في المرأة من مظاهر القبح هو رمز لأيام الشاعر الحيرى وللواقع الكئيب ولضلاله وخطاياه، فكل صور المرأة الجميلة منها والقبيحة هي رمز للحياة المتناقضة والمتقلّبة، وكأن المرأة هي الحياة كلها، هذه بعض

النماذج لازدواجية الجمال والقبح كمظهر من مظاهر المرأة المتناقض في شعر عثمان لوصيف، فكما في الجسد من مواطن الجمال والإثارة والإغراء يقابله مظاهر القبح والازدراء، لكن رؤية الصوفيّ الواسعة تجمع بين هذا وذاك، لأن كل ما في الكون بجماله وقبحه هو صورة من صور تجلي الخالق، وصورة لعظمته وحكمته وتقديره وقدرته، وبعين الصوفي القبح يتحور جمالا، والقبح قناع مؤقت يخفي وراءه الجمال والمتعة واللذة.

خامسا: الأنثى روح سماوية:

تحولت الأنوثة عند الكثير من الشعراء من كائن أرضي ترابي إلى كائن سماوي نوراني، وركز الكثير منهم على المرأة في بعدها الروحي، بعيدا عن الجوانب الحسية المادية، فالغرائز الجسدية سرعان من تنطفئ نارها وجذوتها حال تحصيلها من الطرفين، لكن الأرواح هي من تتعانق وتلتقي وتشتاق وتظل هائمة حتى تَنعم بالوصال، ووصالها لا يمكن له إلاّ أن يزيد اشتعال نار الحب والشوق مرة أخرى، "وتلك هي جدلية اللقاء بين الحب الجسدي، والحب الروحي، والتي يتولد عنها الحب الصوفي، يوصل هذا الحب إلى حالة من الوجود الأعلى، والوعي الأعلى"[22]، فكانت الأنوثة كائنا علويا سماويا في تمظهرها، كائنٌ من نور، ورسول من الملكوت، وحورية من حواري الجنة تُريح العشّاق وتزيل عنهم ألم الانتظار ومكابدة الطريق، ولو للحظات خاطفة، ومن النماذج الشعرية قصيدة " حورية القمر" التي تظهر فيها الأنوثة رمز ا للنقاء والضياء، فهي شفافة ولؤلؤة لازوردية، قمرية متلألئة، امرأة تنزل في لحظات خاطفة، لا تطيل البقاء، لا تتكلم، صمتها هو السحر، يقول الشاعر[23]:

ألمح حورية تتنزّل من ملكوت السماء
في مقلتيها تشع اللآلئ
في صدرها يعبق الياسمين
في ثغرها تتألق فيروزة القلب
سكتت
لم تقل أي شيء
ولكنها تركت فوق وجهي مرآتها القمرية
ثم مضت في الضياء.

في هذه القصيدة التي اخترنا منها بعض الأسطر تتجلّى لنا الأنوثة كائنا صوفيّا سماويا، فهي حورية من جنة الخلد الإلهية، بل هي من ملكوت السماء حيث الكرسي والعرش، حورية صدرها يعبق بالياسمين، وأصابعها تتلألأ نابضة بالرؤى والأغاني، تُكاشف الشاعر المتعرّق الجبين، وتدنو منه دون أن تتكلم، ثم تتركه في شوقه وهيامه وتمضي لتعود للملكوت.

ويقول عثمان لوصيف في قصيدة " آيات صوفية" [24] :

هابطُ أرضك ِالمستكنَّةَ في رعشة السهو
أفتح في روضتي الأبديَّة دربي
وأدخل مملكة الله ..
أخلع نعليَّ
أمشي عن التوت والأقحوان السماوي

أوغل في غبش الصلوات وأهتف باسمكِ
أدنو من العرش
ألقاكِ .. يا امرأتي المستحمة بالنور
أطلق عصفورة الناي
أقرأ تعويذة العشق
أرفع عن وجهِكِ القدسي الحجاب
وأسجد عند التجلي
في السجود أراكِ

رمز الأنوثة نراه هنا تجلٍ إلهي نوراني، صورة من صور الخالق التي تجلت في مخيلة الشاعر، فالمرأة " رمز الصوفية إلى الحكمة العرفانية، والحب في مظهريه الإلهي والإنساني من حيث ما يتضايفان ويحيل كل منهما إلى الإخر، وأستطيقا المرأة بوصفها مجازا للجمال أكثر ديمومة وكلية، والعلو ذاته في تنوع ظهوره وفي تجليه المشهود في المرأة على أنها شكل فيزيائي ومنعكس للتجلي الذي يعاينه الصوفي في رؤية ثيوفانية مشبوبة"[25]، فالمرأة بهذا المفهوم مرآة عاكسة لجمال الإله وسحره، وهذا الجمال الإلهي لا يمكن له أن يتجلّي في صورة واحدة بل تتعدد صوره.

وفي قصيدة " المعبودة" من ديوان " نمش وهديل" تتجلى الأنوثة ذاتا إلهية نورانية حين يقول عثمان[26]:

تجلسين على سدّة الملكوت
مطرّزة بالمجرّات ..
كل السماوات بين يديك
وعيناك فاتحة الغيب
ينهمر الضوء ملء الدّنى
هذه ليلة القدر
أرواحنا أوغلت
ثم كان الحلول .. الحلولْ!
ربّتي .. ربّتي!
آه ! ما أروع الحب

الأنوثة أصبحت في شعر عثمان نسقا يفرض سطوته وصوره ودلالاته، هي الرب هي الحب هي الكون بأسره، تدور حول فلكها كل الكواكب والمجرات، هي النور الإلهي المنهمر من الملكوت، هي الاتحاد والحلول والذوبان والانصهار، والأنوثة الرمز التي يشير إليها عثمان هي صورة للذات الإلهية، يناجيها ويسبح بحمدها صباح مساء، يتضرع إليها وينحني لها في خشوع، لأنها صورة الله ورسولُه للمحبين والعاشقين فيقول[27]:

أتذكركِ
في كل صلاة
فأنحني .. في خشوع

أغمض عينيَّ من رهبة
أسبح بحمدكِ
وأتضرّع
إلى عينيك اللامتناهيتين
يا صورة الله.

هذه هي الصورة النهائية التي يكررها عثمان لوصيف للمرأة في جلّ قصائده ، صورة للأنثى اللدنّية النورانية، مزاوجة يعقدها الشاعر بين الأنوثة كرمز وبين الذات الإلهية، فأحيانا يوظف محاسن المرأة وجمالها ومواطن الإثارة فيها، وأحيانا أخرى يوظف مواطن القبح فيها، فالحسن والقبح ينصهران ليتولد الاتحاد مع الله، وكلما كانت العناصر مختلفة ومتناقضة كل ما كان الاتحاد والتماسك والانصهار أكبر وأقوى وأشد،

إن تمظهر الأنوثة في الشعر الصوفي ما هو إلا انعكاس للذات الإلهية، حيث أسقط الشعراء ما يحدث بين المرأة والرجل من حب روحي وشوق ولهفة للوصال على حالهم، ولا يوجد شعور أقوى وأعتى من هذا الشعور الجارف الذي هو مشابه للحب الإلهي و للشوق للذات الإلهية المتمنعة التي تنكشِف أنوارها في لحظات خاطفة.

خاتمة:

تعدُّد هذه الصور للأنوثة في تمظهراتها وتناقضها يُبين أهمية المرأة كرمز أنثوي في شعر عثمان لوصيف، فللأنوثة دِلالات لا نهائية لا يمكن حصرها، ولا نكاد نقرأ قصيدة من قصائد الشاعر الموزعة على دواوينه التسعة عشر إلا وجدنا حضور المرأة الصوفي المرمز الغامض والعجيب والمغري، ويمكننا أن نقول أن قصائد عثمان لوصيف قصائد أنثوية صوفية بامتياز، فهو شاعر المرأة، لكنها ليست المرأة التي تغنَّى بحبها الشعراء قديما وحديثا، بل هي المرأة الرمز للحياة والتجدد والصبر والألم والحب والنور، رمز للذات الإلهية، رمز للاتحاد والحلول، رمز للتجلي والكشف، رمز للأرض وللكون، هي صورة الله في كونه، هي الخالق والمخلوق، هي الفيض الإلهي الذي يهبه الله للعارفين والمحبين، لحظات من الضياء والنقاء والصفاء، تغازلك تغويك تلوح لك في صمت، تسحرك بصفائها ونورها ثم تترك أثرها على صفحة وجهك وترحل سريعا.

الأنوثة في شعر عثمان لوصيف نسق قائم متسلّط يشدّ بخيوطه كل القصائد والدواوين، هي أيقونة شعرية تطوف حولها كل الصور، فالأنوثة تتجاوز المرأة في حد ذاتها كجنس في مقابل الرجل، وهذا ما أراد الشاعر ترسيخه من خلال قصائده، دلالات لانهائية يحملها الرمز الأنثوي في الشعر، وكلها تحاول الوصول إلى دلالة محورية نهائية هي فكرة الاتحاد، فكلّما كانت العناصر مختلفة ومتمايزة ومتناقضة كل ما كان تماسكها فيما بينها قويا وكان فصل العناصر بعد الاندماج صعب المنال، هذه هي الأنوثة في صورها المختلفة عندما تعبر عن رؤى الشاعر وخيالاته اللامحدودة.

هوامش وإحالات المقال:

1- عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس – دار الكندي، بيروت، ط1، 1978، ص 202.
2- ينظر طه وادي، جماليات القصيدة المعاصرة، مطبعة دار المعارف، القاهرة، ط1، 1989، ص 53.
3- ينظر لخميسي شرفي، التجربة الصوفية والتوظيف الرمزي في شعر عثمان لوصيف، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، جامعة العربي تبسي، تبسة – الجزائر-، المجلد 08، العدد 05 ، 2019، ص 19.

4- عبد الوهاب الشعراني، لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية لمحي الدين ابن عربي ، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، 2015 ،ج2،ص 179.
5- ينظر عثمان لوصيف، ولعينيك هذا الفيض، دار هومه، الجزائر، (د.ط)، 1999، ص 25.
6- عثمان لوصيف، كتاب الإشارات، دار هومه، الجزائر، (د.ط)، 1999، ص 45.
7- نفس المصدر، ص 46.
8- عثمان لوصيف، ولعينيك هذا الفيض، ص 29-30.
9- ينظر عثمان لوصيف، اللؤلؤة، دار هومه، الجزائر، (د.ط)، 1997، ص 11-12.
10- نفس المصدر، ص 63.
11- عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفة، ص 165.
12- ينظر عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل – قراءة في الشعر المغاربي المعاصر، دار الأمير خالد، قسنطينة – الجزائر، (د.ط)، 2014، ص 283.
13- ينظر عثمان لوصيف، قصائد ظمأى، دار هومه، الجزائر، (د.ط)، 1999، ص 31-31-33
14- عثمان لوصيف، ولعينيك هذا الفيض، ص 43-44.
15- عثمان لوصيف، اللؤلؤة، ص 7.
16- الضياء المقدسي أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد الحنبلي، صحاح الاحاديث فيما اتفق عليه اهل الحديث، تحقيق حمزة أحمد الزين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، 2009، ج6، ص 315.
17- نفس المصدر، ج7، ص 253.
18- آزاد محمد كريم الباجلاني، القيم الجمالية في الشعر الأندلسي عصري الخلافة و الطوائف، دار غيداء، الأردن، ط1، 2013، ص 244.
19- ينظر عثمان لوصيف، ولعينيك هذا الفيض، ص 58-59-60-61.
20- عثمان لوصيف، كتاب الإشارات، ص 50.
21- عثمان لوصيف، ولعينيك هذا الفيض، ص 21.
22- عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، ص 254.
23- ينظر عثمان لوصيف، شبق الياسمين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1986، ص 77-78-79.
24- عثمان لوصيف، اللؤلؤة، ص 20.
25- عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفة ، ص 255.
26- عثمان لوصيف، نمش وهديل، دار هومه، الجزائر، (د.ط)، 1997، ص 39-30.
27- عثمان لوصيف، ولعينيك هذا الفيض، ص 34.

قائمة المصادر والمراجع:

1- عبد الوهاب الشعراني، لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية لمحي الدين ابن عربي ، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، 2015.
2- الضياء المقدسي أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد الحنبلي، صحاح الاحاديث فيما اتفق عليه اهل الحديث، تحقيق حمزة أحمد الزين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، 2009.
3- عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس – دار الكندي، بيروت، ط1، 1978.
4- طه وادي، جماليات القصيدة المعاصرة، مطبعة دار المعارف، القاهرة، ط1، 1989.
5- عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، دار الأمير خالد، قسنطينة، (د.ط)، 2014
6- آزاد محمد كريم الباجلاني، القيم الجمالية في الشعر الأندلسي عصري الخلافة و الطوائف، دار غيداء، الأردن، ط1، 2013.
7- لخميسي شرفي، التجربة الصوفية والتوظيف الرمزي في شعر عثمان لوصيف، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، جامعة العربي تبسي، تبسة – الجزائر-، المجلد 08، العدد 05 ، 2019.
8- عثمان لوصيف، ولعينيك هذا الفيض، دار هومه، الجزائر، (د.ط)، 1999.
9- عثمان لوصيف، كتاب الإشارات، دار هومه، الجزائر، (د.ط)، 1999.
10- عثمان لوصيف، اللؤلؤة، دار هومة، الجزائر، (د.ط)، 1997.

11- عثمان لوصيف، قصائد ظمأى، دار هومه، الجزائر، (د.ط)، 1999.
12- عثمان لوصيف، شبق الياسمين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1986.
13- عثمان لوصيف، نمش وهديل، دار هومه، الجزائر، (د.ط)، 1997.